الشيخ علي الطنطاوي مربيا إسلاميا

إن للتربية أهمية كبيرة في تقدم الأمم ونهضتها، لذلك يجب أن يقوم بها الجميع «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

ومن أوائل المسؤولين عن ذلك: المعلمون والمدرسون والعلماء، وقد عرف منهم على المستوى العربي والإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي»، وثلة أخرى من العلماء والمدرسين الذين أشرفوا على تربية الأجيال..

وإذا كان العلم الواسع والشخصية الجذابة والهدف السامي وحب الآخرين، من أبرز مميزات المربي الناجح، فإن الشيخ علي الطنطاوي نال حظاً وافراً منها!.

بقلم : أحمد حسن الخميسي
سورية

علي الطنطاوي مع إخوته

رفيق الكتب والعلماء

فبالإضافة لنيله الشهادات النظامية والجامعية، تلقى العلم على يد عشرات من العلماء والفقهاء في الشام ومصر والعراق، وكان أولهم والده الشيخ «مصطفى الطنطاوي» الذي تفتحت عيون علي الطنطاوي على كلماته وإرشاداته ومواعظه، لقد كان الفتى شغوفاً بالمطالعة منذ نعومة أظفاره، حيث اطلع على كتب الفقه والتاريخ واللغة والأدب، وتابع ثقافة العصر يقول عن نفسه: نشأت بين الكتب والعلماء واستفدت من رفقتهم[٢].

إن شيخنا استطاع أن يتعلم من صدور العلماء ومن سطور الكتب، مما جعل لعلمه طعماً خاصاً، يمكنه من الغوص في ميادين التربية وشعابها.

ولقد عرف الشيخ علي الطنطاوي بشخصيته الجذابة التي تنبع من حديثه الحلو الذي يمتزج بالفكاهة، ومن مظهره الجميل، وتواضعه الجم الذي يلمسه منه كل من عاشره وعاش معه.

أساسيات التربية

لقد قضى الشيخ علي الطنطاوي حياته وهو يربي الأجيال على الفضيلة ليكون المجتمع مؤمناً صالحاً، وكانت أساسيات تربيته ودعوته منطلقة ومنبثقة من الإسلام الحنيف الذي ارتضاه الله تعالى لنا ديناً.

يقول في مقدمة كتابه «من حديث النفس»: أنا أكتب في المجلات والصحف وكتبت أكثر من عشرة آلاف صفحة... لقد كنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائما».

وكانت نيته إرضاء الله تعالى، وهذا ما وجدناه يصرح به في كتبه وأحاديثه، فكثيراً ما كان يقول: أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، ولا يحرمني الثواب عليه.. اللهم اجعل ما كتبت وما حظيت من العلم النافع الذي لا ينقطع بانقطاع العمر.. اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهم إني أسألك أن تنفع به، وأن تثيبني عليه[٣].

هكذا كان يسأل الله تعالى أن يتقبل منه العمل ويجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به وأن يثيبه عليه.

إنها مقاصد سامية تجعل العمل - بإذن الله - ينبت نباتاً حسناً، ويجعل التربية تثمر وتؤتي أكلها.

المربي الناجح

ومن الأمور التي رفعت أستاذنا إلى مرتبة المربي الناجح : حبه للآخرين وخاصة الأطفال، وهذا ما لمسه منه كل من عرفه وصاحبه وتعامل معه، لقد عبر عن حبه للأطفال ذات مرة فقال يخاطبهم: اقبلوا هذه الهدية الصغيرة مني، حبي وعواطف قلبي وهذه التحية[٤].

لقد أخلص في حبه للأطفال وفي حبه لطلابه في المراحل الدراسية المختلفة مما جعلهم يتعلقون به، ويتلقون عنه العلم برغبة وحماسة، ويريدون له كل خير، يقول عن ذلك: وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه، وأخلصت لهم، وحرصت على رضاهم، وكنت أحس بالفرح يغمر نفسي إذا قدمت لواحد منهم خيراً، أو درأت عنه شراً.. ووضعت بين أيديهم رأسي، أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال»[٥].

ميادين التربية

إن أهم ميادين التربية في مسيرة علي الطنطاوي هي : الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام.. لقد حرص منذ أن أصبح أباً أن يربي أولاده على الفضيلة، لقد ربى خمس بنات وعدة أحفاد تربية كريمة تعلقوا به

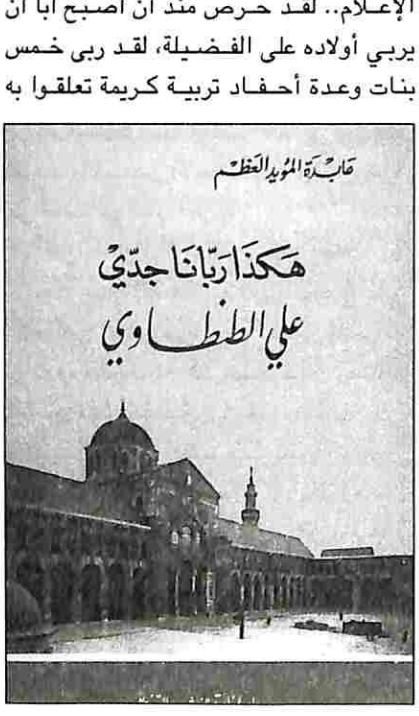

وأحبوه، ومما يدل على حسن تربيته لأولاده وأحفاده الكتاب الذي ألفته حفيدته «عابدة العظم» التي جمعت فيه مواقف الشيخ التربوية، هذه المواقف التي تجلت فيها نظريات تربوية حديثة في إطار إسلامي قويم.

إن حفيدة الشيخ في كتابها «هكذا ربانا جدي» تعترف بتميز جدها تربوياً، وخاصة في تعديل الطباع فتقول: «وكنت كلما سمعت مشكلات الآباء في تربية الأبناء، أعترف لجدي بالتميز والإبداع في معالجة الأخطاء وتعديل الطباع»[٦].

وعلى نطاق الأسرة أوصى الآباء بالأطفال، وحثهم على أن يولوهم من أنفسهم وأموالهم اهتماماً حتى يكون أحدهم «رجل الغد الذي ينفع نفسه والناس بعلمه وخلقه. وعلى الأب أن يمهد لطفله بحسن التربية طريق السعادة في الدارين والنجاة في الحياتين»[٧].

مسيرته التربوية في التعليم

أما مسيرة الشيخ علي الطنطاوي في المدارس والتعليم، فهي مسيرة حافلة بالعطاء مليئة بالتجارب والذكريات، فكثيراً ما حدثنا في كتبه ومحاضراته عن تلك الأيام التي قضاها في التربية والتعليم في مدارس الشام والعراق وكليات الجامعة في المملكة العربية السعودية.

لقد كان له في هذا المجال إسهامات واسعة لا تنسى، منها: إصلاح التعليم الشرعي في سوريا، فقد كلف بتخطيط مناهج التعليم الشرعي في مرحلتيه المتوسطة والثانوية، وكان له الفضل في اتجاه تربوي جيد، فأدخل مادة أعلام الإسلام، وهي تدريس التاريخ من خلال رجاله الذين يكونون وراء الحركات الكبرى في التاريخ[٨].

كما أنه ألف أكثر من كتاب في المناهج المدرسية مثل «التحليل الأدبي»، وكتاب المحفوظات، ومن بواعث تأليفه كتاب «تعريف عام بدين الإسلام»، إلحاح الطلاب عليه في وضع كتاب يعرض الإسلام كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضه على من يفد عليه من العرب «أو الأعراب» فيفهمونه في يوم واحد أو بعض أيام[٩].

وصار للكتاب شهرة واسعة فقد طبع في «المدينة» في المملكة العربية السعودية ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية في عدد خاص من مجلتها «رسالة المعلم» ووزعته على جميع المعلمين والمعلمات في المملكة، ثم طبع في مؤسسة الرسالة، ولا يزال يطبع لما لاقاه من قبول، فهو يجمع بين الإقناع العقلي بالحجج والبراهين وبين آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، ويتميز بسهولة العرض، وضرب الأمثال الحسية التي تقرب الأمور المعنوية وتوضحها.

التربية والإعلام

وأما عن ميدان الإعلام، فحدث ولا حرج عن طول باعه ومقدرته على الدخول إلى قلوب المشاهدين والمستمعين بدون استئذان، فيغرس فيهم القيم السامية التي تربي الإنسان وتجعله سويا يرضي ربه، ويحسن معاملة الناس ويسهم في بناء أمته، ويشهد له بذلك كل الذين شاهدوه وسمعوه وهو يتحدث في برامجه التي كان يقدمها «مسائل ومشكلات» و«نور وهداية» و «على مائدة الإفطار».

لقد قال عنه الدكتور محمد بن لطفي الصباغ: الأستاذ الطنطاوي محدث ناجح في الإذاعة والتلفاز، فقد شهد له الخبراء المختصون، بأنه أنجح متحدث في هاتين الأداتين من أدوات الإعلام، ويمتاز بإلقائه الجميل المحبب إلى النفس[١٠].

إلى جانب هذه الأوساط الثلاثة الأسرة والمدرسة والإعلام التي ربى من خلالها الأجيال، عاش عمره وهو يكتب المقالات التي ينشرها في الصحف، وألف العشرات من الكتب التي تربي الإنسان عقلياً وقلبياً وجسمياً..

كتبه التربوية

لقد كتب *للصغار، وكتب للكبار.*

كتب سلسلة حكايات من التاريخ «وهي من أدب الأطفال» وألف للكبار كتباً كان محورها الأساسي التوجيه والنقد الاجتماعي الذي ينبع من رؤية إسلامية واضحة وصحيحة بأسلوب أدبي سهل ورشيق يترك أثره في القارىء، وإنني أعتقد أن ما كتبه هو في طريق التربية والإصلاح، ولقد كتب كتاباً

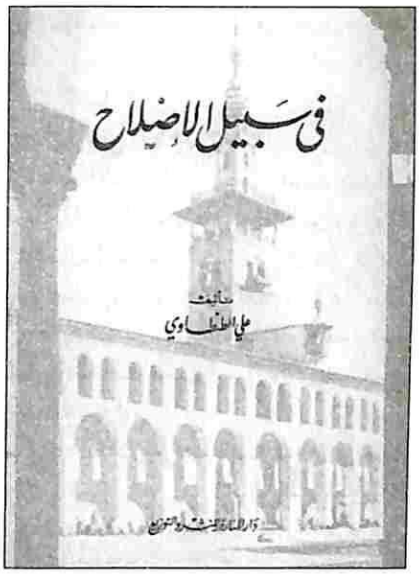

عنوانه «في سبيل الإصلاح» وآخر بعنوان «رسائل الإصلاح»، وإن كلمة الإصلاح قنطرة تنضوي تحتها كل مؤلفات الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي - يرحمه الله -.

لقد خاطب من خلال كتبه الشرائح الاجتماعية جميعها، وأولى قطاع التربية والتعليم - من معلمين وطلاب - الأهمية الكبرى، فما من كتاب من كتبه إلا وتجد فيه عناوين تخصهم، فعلى سبيل المثال: في كتابه «مقالات في كلمات» العناوين التالية:

معلمة - نحن وطلاب اليوم - المعلم الأديب - أبطال صغار - مجرم الغد - أدب الأطفال - النثر والشعر في المدارس.

ولو استعرضنا الكتب الأخرى لوجدنا المقالات والقصص الاجتماعية والتاريخية التي تصب في حقل التربية.

أقواله وآراؤه في التربية

بعد هذه الوقفة مع دور الشيخ علي الطنطاوي التربوي نورد بعض أقواله وآرائه ومقترحاته *التربوية، فعن رسالة المعلمين* ومهامهم يقول: «يجب على المعلمين أن يدلوا التلميذ على الطريق السوي والخطة المستقيمة.. أن يعلموه من هم أجداده، وماهي حضارته، وأن يصبوا في نفسه أخلاق العروبة وآداب الإسلام وأن يحببوا له العلم، حتى يقبل عليه بلذة وشغف، لا لنيل الشهادة والنجاح في الامتحان، بل ليستفيد في ترقية حياته وحياة أمته وخدمة بلاده وقومه.. وأن يفهموه «حقائق الحياة»[١١].

وعن معاناة المعلم ومكابداته - وقد ذاقها الطنطاوي - يقدم لنا صورة لمعلم ابتدائي يشكو مما يعانيه في تربية التلاميذ، فيقول هذا المعلم للشيخ علي الطنطاوي: «إني معلم في مدرسة ابتدائية.. نهاري نهار المجانين، وليلي ليل القتلى، فمتى أفكر؟ ومتى أكتب؟ وأنا أروح العشية إلى بيتي مهدود الجسم مصدوع الرأس جاف الحلق، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مئة حماقة، وأصحح مئة كراسة فأعمي عيني بقراءتها والإشارة إلى خطئها، وبيان صوابها وتقدير درجاتها فإذا انتهيت من هذا كله، عمدت إلى دفتر تحضير الدورس وهو الموت الأحمر والبلاء الأزرق الذي صب علينا هذا العام صباً، فأكتب فيه ماذا أنا فاعل غداً في الفصل.. حتى إذا بلغت آخر كلمة فيه استنفدت آخر قطرة من ماء حياتي، فسقطت في مكاني، فحملت إلى السرير حملاً فنمت نوماً مضطرباً ملؤه الأحلام المزعجة».

وتابع المعلم يحكي للشيخ قصة معايشته مع التلاميذ وما يلاقيه منهم في المدرسة من شغب وقلة فهم ضمن ظروف غير ملائمة، مثل كثرة عدد التلاميذ في الفصل الواحد.

وفي نهاية الحديث قال المعلم للشيخ الطنطاوي: «أفتلومني بعد على أني لا أجود في الكتابة في هذه الأيام؟ فقال له الشيخ: هذه والله حالي فلست ألومك فرج الله عني وعنك»[١٢].

بالرغم من ذلك كله فإن المربي علي الطنطاوي يتحمل التعب والشظف من أجل هدفه السامي الذي يسعى إليه ومن أجل *طلابه الذين أحبهم وأحبوه* فيقول: «أصبر على شظف العيش من أجل *الطلاب الذين* أحبوني وأحببتهم، وتعلقوا بي فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسي.. ولا يدخرون وسعاً في إسداء يد إليَّ أو دفع الألم عني.. ويحرصون على راحتي أكثر من حرصهم على نجاحهم في امتحانهم، ويفضلون كلمة مني على كلمة يقولها القانون.. أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم في قلبي..»[١٣]

وللشيخ علي الطنطاوي آراء تربوية تخص الأطفال، فقد أوصى برعايتهم ودفع الظلم عنهم حتى لا يكونوا مجرمين في المستقبل فيقول: «ارفعوا الظلم، يرتفع الإجرام، وأذهبوا البؤس يذهب الخطر، واعلموا أن هؤلاء المجرمين الذين تمتلىء بهم السجون، كانوا يوماً أطهاراً، وأن هؤلاء الأطفال المهملين المظلومين سيصيرون يوماً مجرمين أشراراً، وإن رأس الإجرام ومنبع الشر هو الذي ظلم هؤلاء الأطفال.»[١٤].

وقال في ضرب الأولاد مجيباً على من سأله عن ذلك: «يا سيدي المسألة ما فيها نعم للجميع أو لا للجميع، المسألة مرتبطة بالشخصية والحدث، فبعض الأخطاء ينبغي أن يضرب عليها الطفل، وقد يكون هناك طفل آخر يكفيه التوبيخ، وضرب المعلم للطفل في المدرسة، ينبغي أن يكون مثل ضرب الأب له»[١٥].

ويحرص الشيخ على ثقافة الأطفال، فقد حذر من مجلات الأطفال المترجمة والمقتبسة، وذات مرة رأى في يد أحد التلاميذ مجلة فيها قصة تشجع على السرقة والاحتيال فقال: «فجعلت أفكر في هؤلاء الأطفال المساكين، كيف يكونون رجالاً صالحين ذوي إرادة وعزم وفهم للواقع وحب للاتحاد إذا كانت المجلات المدرسية التي تنشأ لتوجيههم إلى الخير والفضيلة، إنما توجههم إلى الغش والاحتيال»[١٦].

هذا يعني أن الشيخ فطن لما يكتب للأطفال من مجلات وقصص، وطالب بصورة مباشرة بالاهتمام بثقافة الأطفال.

ولشدة التصاقه بالطلاب، أبدى في كتبه آراء تخصهم، فهو في مقالته «إلى الطلاب» في كتابه «مع الناس» يحض الطلاب على مواصلة الدراسة والمطالعة وتنظيم الوقت والاستعداد للامتحان، والنوم باكراً والاستيقاظ باكراً، وطالبهم بالمواظبة على طاعة الله وترك المعاصي، فإن ذلك يعين على تحصيل العلم.

وفي عطلة الصيف طالب المسؤولين بتشغيل الطلاب، ورعاية مواهبهم، فخصص مقالة عنوانها «شغلوا الطلاب في عطلة الصيف»، وشدد على أن يكون هذا العمل

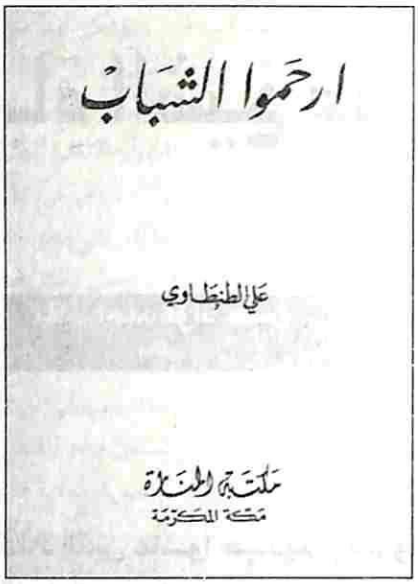

هادفاً منظماً، حتى لا يضيع الطلاب في الشوارع.

إصلاح المناهج

ومن خلال تدريسه المناهج في المدارس اطلع على جوانبها الإيجابية والسلبية ومما لاحظه انصراف الطلاب من النثر إلى الشعر، ففكر في السبب، فوجده في النصوص الميتة التي تقدم في المناهج، يقول: « والذي تقرر المناهج تدريسه في النثر العربي في مصر والشام والعراق، لا يخرج في جملته عن رسائل ميتة لا روح فيها أو فقرات جامدة مسجعة أو غير مسجعة ليس فيها وصف يهز القلب، أو معنى يوقظ الفكر»[١٧].

ثم يقترح أن تؤخذ نصوص من كتب أخرى مثل كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي فإن فيه من السلاسة والسهولة والمسائل النفسية والاجتماعية والدينية ما يغني عن غيره.

إن هذه الدعوة تشبه دعوة أبي الحسن الندوي في كتابه «نظرات في الأدب» الذي طالب بها العزوف عن الأدب الصناعي الذي كتبه الأدباء إلى الأدب الطبيعي الجميل المتوفر بكثرة في كتب الحديث والسيرة.

أساليبه التربوية

أما عن الأساليب التربوية التي اتبعها الشيخ المربي علي الطنطاوي، فقد تجلت في ضرب الأمثال، وإيراد الحجج والبراهين، وسرد القصص الاجتماعية الواقعية وسرد القصص التاريخية، وأسلوب الحوار والاستجواب، وإذا أردت دليلاً على ذلك، فكتابه «تعريف عام بدين الإسلام»، مليء بالحجج والبراهين العقلية وضرب الأمثال، كما أن كتبه الأخرى مليئة بالقصص والحوار والمحادثة التي توضح الفكرة التي يريد الكاتب أن يوصلها للقارىء.

إن الشيخ علي الطنطاوي يعد رجلاً من رجال التربية والإصلاح في عصرنا الحاضر بالإضافة إلى كونه عالماً عاملاً يعرفه القاصي والداني.

إن الجوانب التربوية في حياته متعددة، وإن حياته كلها كرسها للدعوة وتربية أفراد الأمة على الفضيلة وترك الرذيلة.

فجزاه الله خيراً.. وأحسن مثواه..

والحمد لله رب العالمين. ■

الهوامش:

١- رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما. والحديث جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته».

٢- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض - الصفحة الثقافية العدد «٩٧٣٧» ١٢/ صفر/ ١٤٢٠هـ.

٣- أدعية وردت في مقدمات الكتب على التوالي: مع الناس - تعريف عام بدين الإسلام - قصص من الحياة - وكلها من تأليف الشيخ علي الطنطاوي.

٤- علي الطنطاوي - مقالات في كلمات - مكتبة دار الفتح - دمشق - ١٩٥٩، ص ٢٣.

٥- علي الطنطاوي - من حديث النفس - دار الفكر - دمشق - ١٩٧٩، ص ١١٣.

٦- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض العدد ٩٧٣٧.

٧- علي الطنطاوي - من حديث النفس ص ٤١.

٨- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض العدد ٩٧٣٧.

٩- علي الطنطاوي - تعريف عام بدين الإسلام - دار الرائد ص٧.

١٠- ملحق صحيفة الجزيرة - الرياض العدد ٩٧٣٧.

١١- من حديث النفس، ص ٥٢.

١٢- المرجع نفسه ص ٥٣.

١٣- المرجع نفسه ص ١١٧.

١٤- مقالات في كلمات - ص ١٣.

١٥- ملحق صحيفة الجزيرة - العدد ٩٧٣٧.

١٦- مقالات في كلمات - ص ٧٧.

١٧- المرجع نفسه ص ٢٠٣.